مصطفى محمود

عصر القرود

الطبعة الخامسة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

المرأة السكس

المرأة «السكس» ترجمتها فى قاموسنا العربى.. المرأة المرغوبة المرأة المشتهاة من الرجل. ووسائل «السكس» فى تصور المرأة العصرية.. هى قلم روج وقلم كحل وباروكة وكورسيه وأظافر مخضبة ورموش ملصوقة وسوستة تحت الثدى تدفع بحلمته كالمدفع إلى الإمام.. وخط أخضر فوق الحاجب وخط أزرق تحت العين، وكعب نص متر وفخذ مكشوف.. ولا بأس من لفت النظر إلى الفخذ العريان بالاستعانة بجورب ملون مزركش.. وعلى الترزى أن يعتنى بإظهار استدارة الردف وتكويرة «الهانش».. والهانش هو مؤخرة المرأة فى لغة الترزية المهذبة كما تعلموها من

الزبونات المثقفات.. وعلى الترزى أن يكون كريمًا فى الفتحات المختلفة التى يجعلها عند الصدر والظهر والإبطين بحيث يكظ اللحم الأبيض المعطر منها بكمية كافية.. وإذا كان الفستان سهرة فلا أقل أن تصل فتحة الصدر إلى السُّرة من الأمام، وإذا قررت المرأة أن تكون حشمة من الأمام فعليه أن يفهم لغة السيم، فيعرى الخلف أو ينزل بفتحة الشباك الخلفى إلى الهانش بحيث يكشف الظهر كله فى سخاء.. أما عند الإبطين فيحسن أن تكون الفتحات بحيث ينصب منها الثدى كله، فترضع منه العيون فى كل حركة بدون تكلف.. فإذا آثرت المرأة بهدف العفة أن تغطى البطن لأسباب الحمل وخلافه، فيجب على الترزى أن يكون ذكيا ويضع على مكان السرة نجمة أو وردة، أو حلية أو مجموعة فصوص من اللؤلؤ لتقول للعيون.. توقفوا هنا لحظة.. فهنا بقعة لها دلالتها.. لا يصح أن تمر بها العين.. فإذا كان الرجل أعمى، أو يضع على عينيه نظارة «قعر كباية» فلا بأس من الوصول إليه من خلال خياشيمه، فتدلق المرأة البارفان فى جميع فتحات الفستان.. وإذا كانت المرأة من النوع الوقور جدًا كأن تكون زعيمة نسائية، أو رئيسة جمعية للخير، فيمكن أن تستبدل العرى بالشيفون الشفاف.. فتمشى كاسية من الرأس إلى القدم، وفى نفس الوقت لا تحرم العين المشتاقة من الكور الرجراجة والتلال

والأهرامات، والثنيات والمطبات من تحت السيلوفان الشفاف.

ولا يبقى بعد ذلك لاستكمال «السكس» سوى نظرة نعسانة، ونبرة سهتانة وخطوة متعثرة وسلوك عذرى خجول يعاتب العيون الجريئة الزانية المقتحمة، وكأنه يقول لكل رجل.. اخص عليك..

ولا بأس من بضع كلمات فرنسية هنا وهناك، كرتوش ختامية للصورة.

هذه هى المرأة السكس فى التصور العصرى.

ومثل هذه المرأة المصنوعة إذا وضعت رأسها تحت الحنفية، أو تصبب عليها العرق فى يوم قائظ ليمحو الطلاء والزخارف سوف تتحول إلى امرأة أخرى.. ولو نجحت بإغرائها إلى حملك إلى الفراش.. ثم بدأت تخلع الباروكة والرموش والكورسيه والسوتيان والمساند والسوست، وربما طقم الأسنان والنهود والكاوتش والعين الصناعية، فسوف تلقى بنفسك من النافذة وتهرب بجلدك من الشغت والكرشة المتبقية.

ثم دعونا نفكر معًا فى هدوء.. فى هذا الفهم العصرى لمعنى الأنوثة.. هل هو تقدم فى تصور الأنوثة أم تأخر.

ولا شك أن.. أمهاتنا الرجعيات من الجيل القديم، قد

فهمن الأنوثة فهمًا أكثر تقدمًا من حفيداتهن المودرن المثقفات.

فالمرأة العصرية فى الحقيقة لم تتقدم بالبيت، وإنما على العكس رجعت به إلى الوراء خطوتين ليكون بيت دعارة.. وامتهنت جسمها وأنوثتها، فعرضتها كسلعة فى فاترينة العيون.. وتصرفت على عكس ما تدعى وعلى عكس ما تقول بلسانها متهمة الرجال.. بأنها ليست سلعة وليست موضوع لذة يوضع فى قصر الحرملك.. نحن نرد عليها بأنها هى التى أثبتت على نفسها التهمة، وهى التى وضعت البطاقة على نفسها.. بالطريقة التى تلبس بها.. بالطريقة التى تتزين بها.. بالطريقة التى تمشى بها وتتكلم بها.. وكأنها تقول.. بل تصرخ.. أنا أحسن بضاعة للسرير..

ماذا يكون هذا الأسلوب فى الإغراء إلا أسلوب الجوارى والرقيق بعينه.

وإذا كان هذا هو فهم المرأة للتقدمية وللحرية، فإنها تزيف علينا الألفاظ وتخرجها من مدلولها، فلا تقدمية فى مثل هذا السلوك ولا حرية.. وإنما نحن أمام الرجعية بعينها.. فالمرأة انسلخت من إنسانيتها وارتدت إلى حيوانية بدائية فجة، ورفضت الحرية واختارت العبودية للحواس

والغرائز. واختارت أن تكون متعة وفتنة وغواية، لا إنسانة جادة وشريكة عمر.

هنا أنثى تنادى على ذكر.

هنا عواء الغاب.

اختفى الإنسان خجلا وأطل الحيوان من وراء الخضاب.

إنها تزنى حتى باللفظ، فتستخدم الأسماء فى غير مسمياتها بل وفى عكس مسمياتها، فتسمى الرجعية تقدمًا.. وتستحث الأعضاء التناسلية للوثوب، مستخدمة آخر صيحات العلم والموضة.. وأستاذتها فى هذا الأسلوب، ورائدتها ومثلها الأعلى ممثلة سينما أو راقصة كباريه على الأكثر.

وهذا هو الفهم المودرن الثورى للمرأة «السكس».. المرأة المرغوبة.. وهو فهم ينحط بالمرأة وبالرجل معًا.

وتخطئ المرأة تمامًا إذا تصورت أن هذا هو تصور الرجل التقدمى للأنوثة.

والرجل السوى لا يتصور الأنوثة مجموعة فتحات.. وإنما يفهم الأنوثة على أنها أمومة.. والمرأة المرغوبة هى المرأة التى تستطيع أن تجسد الرحمة والحنان، والتعاطف والمودة والفهم؛ وهو يعلم تمامًا أن الأنوثة ليست صدرًا ومقاسات.. وهو يعرف أن هذه المقاسات المثالية تتبخر بعد

أول حمل.. وأن الغزالة تتحول إلى بقرة.. وأنه لا يبقى من الأنثى مما له اعتبار فى قيام البيوت إلا الأمومة والرحمة والحنان وقيم البيت الأصيل.. وأن الحرية هى أن تتحرر المرأة أولا من إلحاح الحيوان فى داخلها، ومن فحيح الغاب ولهاث الحواس.. لتصبح إنسانًا.

هذا هو فهمى وفهم كل رجل سوى للأنوثة الحقة.. فإذا كان هذا الكلام فى نظر الستات المودرن رجعية.. فأنا رجعى جدًّا.. وعلى حق.

ومن حسن الحظ أن هذه الثورة المودرن لم تشمل كل الجيل بعد، فما زال الكثير من نسائنا بخير.. مازلن رجعيات مثلى والحمد لله.

وجاء عصر القرود

الطبيعة البكر فقدت بكارتها..

والغابة العذراء فقدت عذريتها..

والأنهار تلوثت بالمخلفات الكيماوية..

والبحار تلوثت بالمخلفات الذرية.

والهواء تلوث بالدخان وعادم السيارات وأطنان، الغبار السام الذى تنفثه المصانع.

وازدحمت المدن بالناس، واختنقت الشوارع بالمارة، وضاقت العمارات بسكانها، وأصبحت كعلب فسد هواؤها.

وأصبح التنفس ثقيلا ممضا مرهقًا.. وكأن الإنسان ينتزع الهواء انتزاعًا من عالم بلا هواء.

لم نعد نعرف تلك النسمات المنعشة الطليقة التى عرفها أجدادنا، فى أيام العصور الزراعية المتخلفة.

لقد جاء التقدم واستحدث معه صناعات أفسدت البيئة. بما نفثت فيها من أدخنة الكبريت، وأكاسيد الآزوت والكربون.

ثم تقدمنا أكثر وفجرنا الذرة، ولوثنا الماء والهواء والبحر والتربة بالغبار الذرى.

وتقدمنا أكثر بما اكتشفنا من وسائل لإبادة الحشرات الضارة، وفرحنا لأننا سوف نستأثر بثمرات الأرض دون أن تنافسنا فيها الديدان والهوام، فكانت نتيجة ذلك الرش المستمر بالمبيدات أن ماتت الحشرات الضارة، وماتت معها الحشرات النافعة، ومات النحل فى خلاياه، وخرج العسل ملوثًا، كما مرضت البهائم التى تتغذى على المزروعات وأصبح لبنها ملوثًا ولحمها ملوثًا، كما مرضت الأسماك فى الماء، والطيور فى الجو، ومرض الإنسان بما أكل من لحم هذه الطيور والحيوانات، وظهر الـ د.د.ت فى لبن الأم المرضع، وتوزع الموت على الكل، وأصبح كل شىء ملوثا.

وأصبح إنسان اليوم إنسانا شاحبًا لاهث الأنفاس، هضيم الوجه، يشكو الكبد والبلغم والربو والمصران، ويخطو

إلى الشيخوخة وهو مازال فى الخمسين.

وتحولت المدن إلى جاراج سيارات كبير ، له رائحة كريهة هى خليط من رائحة العادم والبنزين والسولار، وهى مخلفات تسرع كلها بالرئتين إلى السرطان.

وحرص الإنسان على تهديم ما تبقى من صحته، فأصبح لا يفارق السيجارة، يرضع منها السم بنهم، وينفث الدخان اللاسع فى وجوه الناس.

ثم استحدث الإنسان تلوثًا جديدًا هو التلوث الضوضائى، بما اخترع من موتورات وماكينات وأوناش وجرارات وكلاكسات، ومكروفونات ومكبرات صوت ملأت الأسماع بالضوضاء إلى درجة الصمم.

وانتهت الموسيقى الرومانتيكية الحالمة.. وظهرت أنواع جديدة من الموسيقى النحاسية الصاخبة، والطبول المجنونة والإيقاعات المدوية، وظهر الجيتار الكهربائى والأورج الكهربائى والبيانو الإلكترونى، واختفى الناى الرقيق الخجول، واختفى العود الذى كان يداعب ويهمس ويوشوش.. وأصبحت موسيقى البارات والحانات وعلب الليل شيئًا غليظًا فاحشًا، يخرق طبلة الأذن.

تلوث كل شىء.. حتى الفضاء تلوث بما ألقى الإنسان فيه من آلاف الأقمار الصناعية، والسفن الفضائية وكواكب

التلصص والتجسس، وصواريخ الرصد والتصوير.. وأفسدت هذه الأجسام الغريبة الطفيلية التى ألقينا بها فى فضاء الكون، أفسدت العلاقات المغنطيسية المحكمة بين الكواكب، وأفسدت جو الأرض المغنطيسى فانقلب الطقس، وأصبح البرد والحر والجفاف والمطر والطوفانات والأعاصير تأتى بخلاف معدلاتها المحسوبة، وفى غير مواسمها.. وانفجرت الزلازل والبراكين حيث لا يتوقع أحد أن تنفجر.. وتغيرت خريطة الأرصاد الجوية.. وقال البعض.. هى مقدمات عصر جليدى.

ثم جاء أخطر أنواع التلوث فى هذا العصر وهو التلوث الخلقى، بما استحدث الإنسان من وسائل إعلامية تدخل على الإنسان غرفة نومه، وتزاحم العائلة على مائدة العشاء مثل التليفزيون والراديو الترانزستور بحجم الكف الذى يأخذه النائم فى حضنه.. ومن خلال هذه الوسائل الحميمة أصبح فى إمكاننا أن نقدم للناس ما نريد.. وأصبح فى الإمكان أن نروج للباطل وننشر الأكاذيب..

وأصبح فى الإمكان أن ندعو للشهوات عيانًا بيانًا بما نغنيه على أسماع الناس ليل نهار من كلمات عارية، وما نعرضه على أعينهم من مغازلات ، فيتربى الصغار على

أن هذا هو الأمر الواقع.. فينتهى الحياء.. وبانتهاء الحياء تبدأ دولة القرود.

ونحن الآن سيداتى وسادتى.. قادمون على عصر القرود.. برغم أن الإنسان مشى على القمر وتحكم فى طاقة البخار، والبترول والكهرباء والذرة وغزا الفضاء.

لكنه بقدر ما حكم هذه الأشياء، بقدر ما فقد التحكم فى نفسه، وبقدر ما فقد السيطرة على شهواته.

ولهذا فنحن أمام إنسان أقل رحمة، وأقل مودة وأقل عطفًا وأقل شهامة وأقل مروءة.. وأقل صفاء من إنسان العصر الزراعى المتخلف.

لقد تقدمنا عشر خطوات إلى الأمام، وسرنا مثلهم إلى الخلف.

سألوا نجمة عالمية من نجوم السينما الفاتنات، معروفة بإضرابها عن الزواج عن رأيها فى الحب فقالت..

أوه.. لا أومن إلا بالعلاقة المادية المباشرة مع الرجل، وبعد ذلك تأتى المسائل الأخرى.. إن قدر لها أن تأتى.

أو بالعبارة العلمية الموضوعية:

نعاشر بعضنا البعض أولا؛ ثم تأتى بعد ذلك الصداقة أو الحب إن قدر له أن يأتى..

ترى من يكون السيد الحاكم فى سلوك هذه السيدة سوى أعضائها التناسلية.

وأبشروا سيداتى وسادتى بمجىء عصر القرود.

الحب فى عالم متغير

إن نظرة عامة على الساحة العاطفية اليوم ترينا أن هناك حالة «فك ارتباط» شاملة ومتكررة فى علاقات الحب العصرى، وترينا أن ظاهرة الوفاء أصبحت أقصوصة خرافية ورواية غريبة تروى وكأنها عن أهل المريخ، وتكاد الواحدة تقول للأخرى.. من تحبين هذا المساء؟ ولا مانع من أن تتشنج الفتاة ويغمى عليها بكاء وحبًّا فى كل مرة..

وتبلغ هذه الحمى أشدها فى المدن والسواحل وكافيتريات الجامعة.. ثم نراها تنحسر كلما نزلنا إلى الأرياف، أو توغلنا فى الصعيد الجوانى، أو رحلنا مع البدو.. ونرى أنفسنا نعود مع البداوة إلى الأصالة والوفاء وثبات

العاطفة.. ونسمع عن عشاق أقاموا على حبهم حتى الموت.. ولا تمر خيانة زوجية دون قتل ودون دم.. ونرى الوفاء يعود فيكون هو القاعدة، ونرى نفس هذا الوفاء فى الريف الفرنسى والريف الإنجليزى والريف الألمانى، كما نراه فى جبل الدروز وجبل لبنان.. فإذا نزلنا إلى باريس ولندن وبيروت عدنا إلى نماذج التهتك التى نراها فى القاهرة وروما ومونت كارلو.. ورأينا الحجاب يسقط كما يسقط الحياء.. ورأينا فتيانًا وفتيات يعشن حياة أشبه بعروض «الستريب تيز».

ويبدو أن للمناخ العام أثرًا فى تشجيع صفات معينة فى النفس وإجهاض صفات أخرى.. ففى الريف المناخ العام هو مناخ وفاء.. يلقى الفلاح البذرة فى الأرض، فلا يخونه المطر ولا يخونه النيل ولا تخونه الشمس، وإنما يجد الوفاء بالوعد هو القاعدة عند الجميع.. وإذا اجتهد فى الحرث والرى أعطت الأرض ثمارها فى الميعاد دون غدر.. ثم إن كل شيء يسير ببطء وهوادة دون هرولة ودون انفعالات ودون مفاجآت.. وتتجاور العائلات وتتزامل وتتصاحب وتتقاسم الخير والشر حتى الموت.. فلا عجب إن أثمر هذا المناخ وفاء عند الناس الذين يعيشون فيه.

ويختلف الأمر تمامًا فى مدينة على الساحل يحج إليها

السياح كل يوم، وتلقى البواخر بأطنان من النساء والرجال من هواة المتعة، وطلاب التغيير على الشاطئ بين ساعة وأخرى.. والكل يتسابق إلى الدفع فى سبيل اصطياد لذة جديدة.

كما يختلف الأمر فى كافيتريا بالجامعة تتداول عليها طوابير طوافة من المراهقين والمراهقات، وتطن فيها الغرائز والشهوات طنين النحل فى خلية.. وتلتهب الأنظار والأسماع بما ترى وتسمع.

ثم حياة المدن.. التى لم يعد فيها الإنسان ينتظر من السماء شيئا.. وإنما أخذ زمام الأمر فى يده وبدأ يدير كل شىء بالأزرار والرادار والأقمار الصناعية، فخيل إليه أنه لا سماء هناك ولا رب ولا مهيمن سواه.. فألقى بالأوامر والشرائع والأعراف والتقاليد وراء ظهره، كما يلقى بتركة بالية وانطلق يعيش على هواه.. ولم يعد الواحد منهم يرى غير نفسه وغير ما يشتهى، وغير ما تأتى به اللحظة من حظوظ وملذات.

وتلك هى الحياة المادية الصرفة.

وحينما يعيش الإنسان حياة مادية صرفة.. فإنه ينفصم تماما إلى لحظات.. وحالات.. ونزوات.. لا رباط بينها.. إلا استهداف اللذة.. والشهوات بطبيعتها سريعة الملل،

سريعة الضجر طلابة للتجديد والتغيير لتظل على اشتعالها.

ومن هنا تأتى هذه الحالة العامة من «فك الارتباط» المتكرر والعلاقات الطيارة.. ونرى الساحة وقد انقلبت إلى جبلاية قرود، تتلاقح وتتسافد فيها الإناث والذكور بلا قاعدة سوى لقاء المصادفة.

والغريب أن النفس فى هذه الحياة لا تزداد شبعًا، بل تزداد جوعًا ولا تزداد امتلاء، بل تزداد خواء.. ثم هى تنتهى إلى حالة من الظلمة الحيوانية والقسوة والبلادة.. ثم تنتهى آخر الأمر بفساد الفطرة إلى اليأس والجنون وطلب الانتحار.

ولهذا نجد أعلى نسبة للجنون والانتحار فى بلاد الترف والتحلل، والإشباع الجنسى مثل روسيا وأمريكا والسويد والنرويج.. ولا نجدها بين الذين يعيشون حياة الريف أو حياة البداوة أو حياة الجبل.. كما لا نجدها إطلاقًا بين أهل الإيمان، وأهل الوفاء وأهل المثل والقيم.

ويظل هؤلاء الماديون على غوايتهم لا يفيقون إلا على زلزال، أو طوفان أو بركان أو وباء مهلك، تعجز أمامه حيلهم ومعارفهم، فيتوقف الواحد منهم وقد شل عقله تمامًا وهو يرى قوة أخرى غير قوته، وإرادة أخرى غير إرادته تعمل فى الكون.

فإذا مضت الحادثة، وانصرف آخر عامل إنقاذ، عاد المسرفون منهم إلى عتوهم.. ورأيناهم يفسرون ما حدث بالعبث والقوى العبثية والعشوائية والمصادفات العمياء، وازدادوا بذلك عمى على عماهم، وفاتتهم العبرة، ونسوا التاريخ، ولم يفقهوا أن ما حدث كان صيحة إنذار.. ونفخة أولى فى الصور.. ليصحو من يصحو ويفيق من يفيق.. قبل أن تأتى نفخة الصور الثانية فتكون الطامة..

وتلك كانت رواية التاريخ التى تعددت فصولا.

وتلك كانت قصة عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط.

وتلك كانت سنة الله فى الأرض.

ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وإنما الحب وروايات أهل الحب مثال من ألف مثال..

والفطن اللبيب من يعرف كيف يقرأ التاريخ، وكيف يحل رموز حجر رشيد، ويفقه الحكمة الخافية والعبرة المستترة وراء الحوادث اليومية التى تبدو من السطح؛ وكأنها تداعى المصادفات.

الحب لا.. الرحمة نعم

بالرغم من قيمة مشاعر الحب عندى وعندكم معاشر القراء والقارئات، وبالرغم من أن الحب يكاد يكون صنم هذا العصر الذى يحرق له البخور، ويقدم له الشباب القرابين من دمائهم، ويقدم له الشيوخ القرابين من سمعتهم، وترتل له الأناشيد، ويزمر له الزامر، ويطبل الطبال، وترقص الراقصة، وتعمل بلاتوهات السينما وستوديوهات التليفزيون، وكباريهات شارع الهرم ليل نهار لتمجيده ورفعه على العرش، ليكون المعبود الأول والمقصود الأول، والشاغل الأوحد والهدف الأوحد والغاية المثلى للحياة التى بدونها لا تكون الحياة حياة.

وبالرغم من أننا جميعًا جناة أو ضحايا لهذا الحب، وليس فينا إلا من أصابه جرح أو سهم أو حرق، أو أصاب غيره بجرح أو سهم أو حرق.

بالرغم من هذه الأهمية القصوى، والصدارة المطلقة لموضوع الحب فى هذا الزمان، فإنى أستأذنكم فى إعادة نظر وفى وقفة تأمل، وفى محاولة فهم لهذا التيه الذى نتيه فيه جميعًا شيوخًا وشبابًا وصبايا.

وأسأل نفسى أولا وأسألكم:

هل تعلمون لماذا يرتبط الحب دائما بالألم، ولماذا ينتهى بالدموع وخيبة الآمال؟!.

دعونى أحاول الإجابة فأقول: إن الحب والرغبة قرينان.. وإنه لا يمكن أن تحب امرأة دون أن ترغبها، ولهذا ما تلبث نسمات الحب الرفافة الحنون أن تمازج الدم واللحم، والجبلة البشرية فتتحول إلى ريح وإعصار وزوبعة تدفع بالمرأة إلى حضن الرجل، حيث ينصهر اللحم والعظم فى أتون من الشهوة العارمة، واللذة الوقتية التى ما تكاد تشتعل حتى تنطفئ.

والشهوة فى طبيعتها العنف والعدوان والامتلاك والتسلط، والمرأة التى كانت تسير مع الرجل جنبًا إلى جنب

ويدًا فى يد، تصبح بالشهوة تحته وتتحول إلى كيان ذائب مسحوق بين ذراعيه.

هل أقول إن الحب يتضمن قسوة خفية، وعدوانًا مستترًا ؟.

نعم هو كذلك إذا اصطبغ بالشهوة، وهو لابد أن يتلون بالشهوة بحكم البشرية.

والمرأة التى تشعر أن الرجل استولى على روحها، تحاول هى الأخرى أن تنزع روحه وتستولى عليها.. وفى ذلك عدوان خفى متبادل، وإن كان يأخذ شكل الحب.

والمرة الوحيدة التى جاء فيها ذكر الحب فى القرآن هى قصة امرأة العزيز التى شغفها فتاها (يوسف) حبًّا.

فماذا فعلت امرأة العزيز حينما تعفف يوسف الصديق؟ وماذا فعلت حينما دخل عليهما الزوج؟ لقد طالبت بإيداع يوسف السجن وتعذيبه.

﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾.

[٢٥ – يوسف]

وماذا قالت لصاحباتها وهى تروى قصة حبها؟

﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونًا من الصاغرين﴾.

[٣٢ - يوسف]

إن عنف حبها اقترن عندها بالقسوة والسجن والتعذيب.

وماذا قال يوسف الصديق؟

﴿قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه﴾.

[٣٣ - يوسف]

لأنه أدرك ببصيرته أن الحب سجن، وأن الشهوة قيد إذا استسلم له الرجل أطبق على عنقه حتى الموت.. ورأى أن مكثه فى السجن عدة سنوات، أرحم من الخضوع للشهوة التى هى سجن مؤبد إلى آخر الحياة.

إن الحب لا يظل حبًّا صافيًا رفافًا شفافًا، وإنما ما يلبث بحكم الجبلة البشرية أن يصبح جزءًا من ثالوث هو: الحب والجنس والقسوة، وهو ثالوث متلاحم يقترن بعضه ببعض على الدوام.

ولأن قصة الحب التى خالطتها الشهوة ما تلبث أن تنتهى إلى الإشباع فى دقائق، ثم بعد ذلك يأتى التعب والملل والرغبة عند الاثنين فى تغيير الطبق، وتجديد الصنف لإشعال الشهوة والفضول من جديد.. لهذا ما يلبث أن يتداعى

الحب إلى شك فى كل طرف من غدر الطرف الآخر.. وهذا بدوره يؤدى إلى مزيد من الارتياب والتربص والقسوة والغيرة، وهكذا يتحول الحب إلى تعاسة وآلام ودموع وتجريح.

والحب لا يكاد ينفك أبدًا عن هذا الثالوث.. «الحب والجنس والقسوة».. وهو لهذا مقضى عليه بالإحباط وخيبة الأمل، ومحكوم عليه بالتقلب من الضد إلى الضد، ومن النقيض إلى النقيض.. فيرتد الحب عداوة وينقلب كراهية وتنتحر العواطف كل يوم مائة مرة.. وذلك هو عين العذاب.

ولهذا لا يصلح هذا الثالوث أن يكون أساسًا لزواج.. ولا يصلح لبناء البيوت، ولا يصلح لإقامة الوشائج الثابتة بين الجنسين.

ومن دلائل عظمة القرآن وإعجازه أنه حينما ذكر الزواج، لم يذكر الحب وإنما ذكر المودة والرحمة والسكن.

سكن النفوس بعضها إلى بعض.

وراحة النفوس بعضها إلى بعض.

وقيام الرحمة وليس الحب... والمودة وليس الشهوة.

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾.

[٢١ - الروم]

إنها الرحمة والمودة.. مفتاح البيوت.

والرحمة تحتوى على الحب بالضرورة.. والحب لا يشتمل على الرحمة، بل يكاد بالشهوة أن ينقلب عدوانًا.

والرحمة أعمق من الحب وأصفى وأطهر.

والرحمة عاطفة إنسانية راقية مركبة، ففيها الحب، وفيها الأخوة، وفيها الصداقة، وفيها الحنان، وفيها التضحية، وفيها إنكار الذات، وفيها التسامح، وفيها العطف، وفيها العفو، وفيها الكرم.

وكلنا قادرون على الحب بحكم الجبلة البشرية.

وقليل منا هم القادرون على الرحمة.

وبين ألف حبيبة هناك واحدة يمكن أن ترحم، والباقى طالبات هوى ونشوة ولذة.

ولذلك جاء كتاب الحكمة الأزلية الذى تنزل علينا من الحق.. يذكرنا عند الزواج بالرحمة والمودة والسكن.. ولم يذكر كلمة واحدة عن الحب، محطمًا بذلك صنم العصر ومعبوده الأول، كما حطم أصنام الكعبة من قديم.

والذين خبروا الحياة وباشروا حلوها ومرها، وتمرسوا بالنساء يعرفون مدى عمق وأصالة وصدق هذه الكلمات المنزلة.

وليس فى هذه الكلمات مصادرة للحب، أو إلغاء للشهوة وإنما هى توكيد، وبيان بأن ممارسة الحب والشهوة بدون إطار من الرحمة والمودة والشرعية هو عبث لابد أن ينتهى إلى الإحباط.

والحيوانات تمارس الحب والشهوة وتتبادل الغزل.

وإنما الإنسان وحده هو الذى امتاز بهذا الإطار من المودة والرحمة والرأفة، لأنه هو وحده الذى استطاع أن يستعلى على شهواته؛ فيصوم وهو جائع ويتعفف وهو مشتاق.

والرحمة ليست ضعفًا وإنما هى غاية القوة، لأنها استعلاء على الحيوانية والبهيمية والظلمة الشهوانية.

الرحمة هى النور والشهوة هى النار.

وأهل الرحمة هم أهل النور والصفاء والبهاء، وهم الوجهاء حقًا.

والقسوة جبن والرحمة شجاعة.

ولا يؤتى الرحمة إلا كل شجاع كريم نبيل.

ولا يشتغل بالانتقام والتنكيل إلا أهل الصغار والخسة والوضاعة.

والرحمة هى خاتم الجنة على جباه السعداء الموعودين

من أهل الأرض.. تعرفهم بسيماهم وسمتهم ووضاءتهم.

وعلامة الرحيم هى الهدوء والسكينة والسماحة، ورحابة الصدر، والحلم والوداعة والصبر والتريث، ومراجعة النفس قبل الاندفاع فى ردود الأفعال، وعدم التهالك على الحظوظ العاجلة والمنافع الشخصية، والتنزه عن الغل وضبط الشهوة، وطول التفكير وحب الصمت والائتناس بالخلوة وعدم الوحشة من التوحد، لأن الرحيم له من داخله نور يؤنسه، ولأنه فى حوار دائم مع الحق، وفى بسطة دائمة مع الخلق.

والرحماء قليلون، وهم أركان الدنيا وأوتادها التى يحفظ بها الله الأرض ومن عليها.

ولا تقوم القيامة إلا حينما تنفد الرحمة من القلوب، ويتفشى الغل، وتسود المادية الغليظة، وتنفرد الشهوات بمصير الناس، فينهار بنيان الأرض وتتهدم هياكلها من القواعد.

اللهم إنى أسألك رحمة..

اللهم إنى أسألك مودة تدوم..

اللهم إنى أسألك سكنًا عطوفًا وقلبًا طيبًا..

اللهم لا رحمة إلا بك ومنك وإليك..

متى يكون الحب جهلا

ليس أكره عند الله من كهل يعشق، أو غنى يبخل، أو قوى يطغى، لأن الإنسان يبلغ غاية قدراته مع رشد الكهولة، وبسطة الغنى ووفرة القوة.. ولا ينتظر من هذا الذى بلغ أشده أن يقع فى النقصان.. وما يسامح فيه المراهقون والصبيان، لا يسامح فيه الكهول الراشدون، ولهذا يقول القرآن عن الإنسان.

﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدىَّ وأن أعمل صالحًا ترضاه﴾.

[١٥-الأحقاف]

ويسمى القرآن الصبوة إلى النساء جهلا، فيقول النبى يوسف شاكيًا حاله إلى ربه حينما تكاثرت عليه نسوة مصر يراودنه..

﴿وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾.

[٣٣-يوسف]

فيقول لربه: إن لم تصرف عنى إغواء هؤلاء النسوة فسوف أضعف بحكم بشريتى وأصبو إليهن وأكن من الجاهلين..

ويسمى القرآن الصبوة إلى النساء جهلا.

وتلك لمحة قرآنية عميقة تحتاج إلى وقفة تأمل.. لماذا تكون الصبوة إلى الجميلات الحسان ذوات الفتنة جهالة؟

وما الذى جهله ذلك الذى أغرم صبابة وهام حبًّا؟

وما نوع الجهل المقصود؟

إن المغرم صبابة يمكن أن يكون من حملة الدكتوراه، ويمكن أن يكون وزيرًا للثقافة والإعلام، ويمكن أن يكون فقيهًا، ويمكن أن يكون عالمًا، ويمكن أن يكون صوفيًّا، سالكًا طريق أهل الله.. فسقطة الحب ليس فيها كبير.. وفتنة المرأة يمكن أن يقع فيها الرجال على تنوع ثقافاتهم..

إذن الجهل المقصود هنا ليس هو الجهل المتعارف عليه.. ليس هو الجهل بالحساب والكيمياء والجغرافيا.. وليس هو الجهل بالفلسفة والفقه وعلوم الكلام.. وليس هو حتى الجهل بالشريعة.. لأن النبى يوسف لو أنه سقط لما كان سقط عن جهل بالنصوص والوصايا.. إنما الجهل المقصود هنا أعمق.. هو جهل بروح الأمر.. وسره.. وخفاياه.. جهل بروح الشريعة وحكمتها ومقصودها الباطن.

فما هو روح الأمر؟.

ولماذا جهل ذلك المغرم صبابة روح الأمر حينما نظر إلى وجه حبيبته فتعلق به، وافتتن وهام وارتبط به بكل همته وعزمه، وجعل من ذلك الحسن والجمال شغله الشاغل بالليل والنهار.

إنه جهل تمامًا – وبلا شك – لأنه قد فاتته لغة الله التى كلمه بها من خلال وجه حبيبته الجميل.

فالله يقول له من خلال هذا الوجه أنا الظاهر والباطن وأنا الأول والآخر.

أنا الجمال الظاهر الذى فتنك فلا تنسبه لغيرى.

وأنا الحسن والبهاء الذى بهرك، فلا تظنه لحبيبتك وتنسانى.. فغدًا وبعد سنوات لو نظرت إلى هذه الحبيبة عينها فلن ترى فيها إلا وجهًا مغضنًا، وخدًّا هضيمًا وجلدًا

مجعدًا.. وبالموت سوف تغدو رمة.. فجمالها ليس جمالها، إنما هو جمالى، وحسنها ليس حسنها وإنما هو حسنى، أنا أعطيته إيّاها على سبيل الإعارة والإنعام.. لأنعم عليها وعليك وأجمل حياتها وحياتك.. فكيف تنسانى وتعطى نفسك كليةً لها وتعطينى ظهرك، وتجتمع عليها بكل همتك وتتفرق عنى؟! تلك يا عبدى قطيعة وجهل بأصل النعمة، وإغفال لليد الحقيقية التى أنعمت وأعطت.

ولأن هذه الصبابة قطعت صاحبها عن الله، وحجبته عن نور ربه، فقد سماها الصوفى أبو حامد الغزالى سقوطًا، واعتبر الغرق فى حب امرأة واحدة إشراكًا بالله.. فلا يصح التوحيد فى الحب إلا لله وحده، ولا يعشق وحده ولا على وجه الإفراد الكامل إلا الله.. وتلك عند الغزالى من أسباب الحكمة الخفية لتعديد الزوجات.

إن المغرم صبابة جاهل.. لأنه لم يعرف من هو الجميل؟ إنه غرق فى تقبيل نحاس الضريح فى حين أن المحبوب الحقيقى هو روح الحسين مثلاً... وتلك وثنية سقط فيها العاشق ولم يدركها.

وكل مغرم صبابة هائم بالشفتين والنهدين، مشغوف بلثم الخدود والقدود.. هو وثنى مادى عابد أصنام أنسته الشكليات الجزئية الحاضرة محبوبه الحقيقى، وأنسته اليد

الحقيقية التى كان يجب أن يلثمها..

وذلك باب شريف من الغيرة الإلهية.. أن يحرم الله هذه الصبابة، لأنه يغار على عبده ويراه جديرًا بحب أرقى وأعلى.. ولا يحب أن يرى عبده يلحس اليدين والشفتين مثل كلب يلوك عظمة.. وكأنه يقول له: انظر لقد فاتتك وليمة أشرف، ولذات أعظم وشغلت نفسك بالمسائل الدون ولثمت الحجاب، وخلف الحجاب الوجه الذى دون جماله كل جمال.. خلف الحجاب وجهى أنا.

أنا سبحانى خلف الحجاب..

فانظر إلى يا عبدى فإنى أنظر إليك.. وأنا فى عين كل ناظر، وعلى لسان كل متكلم.. وفى سمع كل مستمع، وأنا خلقت العالم من أجلك، وخلقتك من أجلى، ومن أجل أن تنظر إلىّ وأنظر إليك، فلا تنشغل بما هو لك، وبما هو فى خدمتك وتنسى ما أنت له بحكم رتبتك ووجاهتك.. وإلا فقد نسيت وجاهتك ووجاهتى؛ ورضيت لنفسك بدروم الخدم بما فيه من ملذات ومتع تافهة.. ولو خلدت إلى هذا البدروم واطمأننت إليه ووجدت نفسك فيه.. فأنت منه.. ومصيرك فى الآخرة بدروم الظلمة وعالم الأسفلين.. وأنا أغار عليك وقد كرمتك بما نفخت فيك من روحى، ورفعتك عن هذا السفل.. أن تعود فتقع فيه.. وحفظتك بشريعتى وأوامرى، وقضيت

عليك بالرجم والجلد إن زنيت خوفًا عليك وحفاظًا عليك ولكى أبعدك عن هذا المصير وعن عالم الأسفلين.. وأخفيت رحمتى فى عقابى.. فافهم.. افهم اليوم وإلا فما فهمت أبدًا..

تلك روح الأمر..

وتلك فتنة الحجاب..

ومن وراء الحجاب الوجه الأجمل الأكمل الذى قال عنه سبحانه: ﴿كل شىء هالك إلا وجهه﴾.

فكل من يرتبط بغير وجه الله يهلك..

وكل حب لغير وجه الله هو حب هالك.

يقول الله لنبيه فى حديث قدسى.. «عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه».

فالفراق والإحباط والفشل نهاية كل حب لغير وجه الله.

إنما تكون العلاقة السوية على الأرض بين الرجل والمرأة هى علاقات المودة والرحمة.. والرحمة تشتمل على الحب المطلوب لعمارة الأرض ونجاح الأسر.. أما الحب صبابة والجنون غرامًا.. والهلاك فى مفاتن الخدود والقدود.. فذلك هو الجهل المحظور وهو لثم نحاس الأضرحة.

وقانا الله أن نكون من أهل الصبابة..

وحفظك وحفظنى أن نكون من أهل الجهالة فى عصر كله جهالة..

من هى المرأة الفاضلة

يقول سليمان فى التوراة:

امرأة فاضلة من يدلنى عليها.. إنها أثمن من كل ما فى الأرض من ماس ولآلئ.. فتشت فى الألف امرأة فلم أجدها.

فمن هى تلك المرأة الفاضلة التى فتش عنها سليمان الحكيم فى نسائه الألف فلم يجدها..؟!

سمعنا عن نساء فاضلات حكى عنهن التاريخ وجرت حياتهن مجرى السير.

مريم العذراء.

وخديجة زوج الرسول.

وآسيا امرأة فرعون.

تلك كانت أسماء وسير وحكايات غبرت ومضت.

فماذا يتصور الذهن اليوم حينما يحاول توصيف المرأة الفاضلة فى زماننا؟

فى القاموس الدارج أنها امرأة تحب حتى الموت.. هكذا تقول الأغانى.. وهكذا تقول أجهزة الإعلام.

وأنا أسأل .. موت من..؟!

المشاهد أن كل النساء يحببن حتى الموت.. حتى موتنا نحن..

وعطاء الحب من المرأة طبيعة وفطرة وليس فضيلة.

وهو أيضا ليس فضيلة، لأنه عطاء يتلقى مقابلا من النشوة، واللذة الفورية فهو عطاء مجز وتكاليفه ممتعة.

ومريم العذراء سيدة نساء العالمين لم تعط من هذا النوع من الحب.. وهى لم تحب رجلا.

وخديجة كان عطاؤها الذى ميزها هو عطاء من نوع آخر.. فقد أعطت النبى الأمن والأمان، وكانت له أمًّا وزوجة وملجأً، ومأوى من عداوة الكفار، ومكرهم وتآمرهم.. ثم أعطت نفسها وحياتها ومالها لرسالته وأهدافه، واتخذت محبوبه عين محبوبها، وطريقه عين طريقها، فأحبته لله وأحبت

الله فيه، واتخذت دستوره حياة، واختارت هجرته إلى الله هجرة محببة لها، وكانت حياة الاثنين معًا أنسًا كاملا وائتناسًا وملاء كاملا لا خواء فيه ولا ملال.. ولهذا لم يفكر الرسول أن يتزوج عليها أو يجمع عليها بأخرى.. بالغة ما بلغت من الجمال.. وهى التى كانت تكبره بعشرين عامًا. ولم يعدد بين زوجاته إلا بعد وفاتها.

إن القضية إذن ليست قضية حب.

فهناك من تحب فلا ترحم.. وهذا حال الكثرة.

وهناك من ترحم ولا تحب.. وتلك عطاؤها شفقة وصدقة، وذلك عطاء لا حب فيه، وندر بين النساء من جمعت فى قلبها جمعية «الحب والرحمة».. تلك التى عواطفها سكن، وحنانها قيم، وحبها ظل ظليل، وليس نارًا محرقة.

ولعل هذه المرأة هى التى أرادها سليمان فى التوراة.

ومثال مريم فى الزهد والتجرد الكامل، وقتل الجسد غير وارد الآن.. وهى فى التاريخ استثناء.. ربما لن يتكرر.

وليس هناك من يطالب المرأة بأن تكون مريم.

ولم يكن سليمان يفتش عن مريم فى زوجاته الألف، ولعل مثال خديجة كان أقرب إلى تصوره، وهو أيضًا أقرب إلى تصورنا نحن وإمكاناتنا

فحسب الرجل امرأة، تستطيع أن تتخلص مما فى صدرها من غل، وتغلب فى نفسها صفات التسامح، واللين والمودة والوداعة، على الانتقام والغضب والغيظ.. امرأة تكون له أمًّا ولرسالته عونًا وسندا.

فتلك هى الشخصية النورانية.

وسماتها هى تلك «الجمعية النادرة بين الحب والرحمة».

وهى جمعية لا تجتمع إلا فى الأشخاص النورانيين.. الأشخاص الذين استطاعوا أن يرتفعوا على جبلتهم الطينية، ويتجاوزوا ضروراتهم البشرية.. فنزعوا ما فى صدورهم من غل.. وأصبح الحاكم عندهم هو الجانب الربانى من نفوسهم.

وهؤلاء قلة نادرة.. يحتسبون فى التاريخ بالأسماء.. رجالا ونساء.

وإذا كانوا فى الرجال قلة فهم فى النساء أقل. لأن الله جعل الجبلة البشرية فى النساء أقوى منها فى الرجال، وجعل من النساء لحم العلاقة الزوجية ودمها وهيكلها، وجعلهن بذلك أكثر واقعية وأكثر ارتباطًا بالأرض، وأكثر خضوعًا لضرورات البشرية وأحكامها، وأقل قدرة على التجرد والتحليق، والاستعلاء على الجبلة الطينية؛ ولذلك أعد المرأة للبيت والأمومة، وأعد الرجل للفلسفة.. وعهد

بالطفل إلى المرأة.. وعهد بالنبوة وتغيير العصر إلى الرجل.. وبذلك جعل المرأة هى الأساس، وهى العنصر المحافظ.. والرجل هو أداة الانتقال وعنصر الثورة.

ولذلك كانت الجبلة الطينية فى المرأة قوية، والبشرية أكثر تحكمًا، والحب عنيفًا مشتعلاً وقلما يرحم.

ولذلك فتش سليمان الحكيم فى الألف زوجة فلم يجد امرأة فاضلة واحدة.

وانسحب فشل سليمان على البشرية.

فلا عجب، إن كنا أكثر فشلا من سليمان.. ولنا عذرنا.. ولهن عذرهن.

ولا عجب، فنحن فى عصور أكثر ظلمة، وأكثر مادية من عصر سليمان.. عصور أصبح فيها الحديد والصلب والبترول والذرة حكامًا على مصير الأرض.

فاسألوا الله الرحمة..

ولا تسألوا غيره فتهلكوا.

وحاولوا أن تكونوا فضلاء أولا، قبل أن تفتشوا عن المرأة الفاضلة.. فالثمار لا يمكن أن تظهر إلا إذا ظهرت الزهور أولا.

ولتجد امرأة كخديجة، لابد أن تكون رجلاً كمحمد.

وتربية الفضيلة فى النفس أمر مختلف عن تسمين الدجاج أو تربية الأسماك.. فليس للفضيلة وصفة علمية تنمو بها ولا بذور تشترى من السوق.. إنما الفضيلة نور.. ولا يمكن أن تتنور النفوس إلا بالاتجاه إلى مصدر الإشراق.. إلى الله صاحب الفضل فى كل فضيلة.

ولذلك كان أولو الفضل والفضيلة الحقة هم الساجدين والساجدات.. وإذا رأيت فضيلة فى امرأة غير مؤمنة، فتلك فطانة وذكاء لا فضيلة، وتلك أخلاق التعامل التى تراها فى البقالات الناجحة وشركات الائتمان.. وذلك أمر مختلف.

إنما الفضيلة نور وعطاء من ذات النفس، بلا حساب وبدون نظر إلى مقابل، وهى صفة ثابتة تلازم صاحبها فى جميع مواقفه.. ولا تتلون بالمصالح.. فكما أن الله بكرمه يرزق المؤمن والكافر.. كذلك الذين أخذوا كرمهم من عند الله تراهم يمدون يد المعونة إلى أصدقائهم وأعدائهم، وهذا شأن النور يدخل القصور والجحور دون تحيز.

وصدق سليمان الحكيم.. فإن من يرزقه الله امرأة فاضلة.. فقد رزقه جميع لآلئ وماسات الأرض.. وأكثر.

وقليل فى الأرض أمثال هذا الرجل.

عن الشهوة

مع سن البلوغ تهب زوبعة الرغبة وتتفجر الشهوات، ويطالب الجسد بحظه من الإشباع، ويشعر الشاب بهذه الرغبات تغالبه وتزاحمه كأنها مشيئة أخرى فى داخله، تحاول أن تفرض ذاتها عليه، ويشعر بنفسه يدفعها وتدفعه، ويكبحها وتكبحه، ويلجمها مرة وتفلت منه مرات، وتجذبه وراءها وتجره إلى حضيض اللذات الحسية المباشرة، والمزاولات البدائية.

وتلك هى المراهقة، وقد يصاحبها انطواء وسوداوية، ورغبة فى العزلة أو ثورة ولهو وعربدة. وقد يصاحبها تدين حاد مريض متهوس، أو كفر وعصيان وتمرد، ورفض لجميع

الأخلاق والأعراف، فنرى الشاب يقول: جسمى ملكى أفعل به ما أشاء، وأستمتع ما أشاء مادمت لا أغتصب أحدًا. ونرى الفتاة تقول: أنا حرة، أهب نفسى لمن أحب وأختار، ولا دخل لأحد بنا مادمنا لا نؤذى أحدًا.. وقد تصل هذه الإباحية إلى ذروتها، وترفع لنفسها رايات فلسفية مثل العبثية والوجودية والفوضوية، فتعقد صلحًا مزيفًا مع العقل، بل أكثر من ذلك تجعل العقل خادمًا لها، يجلب لها المزيد من اللذات، ويسخر لها المزيد من صنوف المتعة.

ويقول الواحد منهم.. كل شىء حلال مادمنا لا نخون أنفسنا، ولا نكذب ولا نمثل ولا ندعى.. وهو كلام يكشف عن التباس خطير.. فقد تصور الواحد منهم أن هذه الشهوة الوافدة.. هى حقيقة إرادته ورغبته بالأصالة.. وتصورها هدفًا لوجوده وغاية لحياته على الأرض. والحقيقة غير ذلك، فالله حينما يشعل هذا الصراع بين النقيض والنقيض (بين الروح والجسد) فى الإنسان إنما يريد بذلك أن يوقظ إرادة النفس المستقلة، ويزكيها ويميزها كشىء متميز متعال، على إرادة الجسم، والأعضاء التناسلية.. يريد بكل إنسان أن يكتشف أنه ليس جسده.. وأنه حاكم لهذا الجسد، ولا يصح أن تنقلب الآية فيصبح الجسد حاكمًا عليه.. وأنه سيد على هذا الجسد، ولا يصح أن ينقلب السيد

خادمًا والحاكم محكومًا، وإلا اندرج الإنسان فى عداد البهائم.

ولا يكتشف الإنسان هذه الحقيقة، إلا حينما ينحدر إلى سفل هوة الخضوع الشهوانى، وحينئذ يشعر أنه لم يزدد حرية؛ بل ازداد قيدًا، وأنه لم يصبح حرًّا بل أصبح عبدًا، وأنه أصبح سجين جسمه، وأن أعضاءه أصبحت تخنقه مثل الجاكتة الجبس.. وحينئذ يثور الواحد منهم إن كان من أهل الإخلاص، ويكسر قيوده ويتحرر، ويبدأ فى مسيرته الإنسانية السوية، نحو علاقة ينظم فيها هذه الرغبة فى زواج ناجح، أو ينصرف عنها إلى عمل منتج.. أما إن كان من أهل الجبلة الحيوانية، فإنه يمضى فى الانحدار إلى الحضيض حتى تموت نفسه، وتموت روحه كما تموت نحلة فى العسل.

والفرق بين ضبط هذه الرغبة، وعدم ضبطها هو الفرق بين جبلاية القرود وبين المجتمع المتمدن.

وما أكثر المدن الأوروبية التى أصبحت الآن أشبه بجبلايات القرود.

وإشباع هذه الرغبة يؤدى دائمًا إلى حالة من البلادة والخمول، والكسل وموت الروح.. تمامًا مثل إشباع المعدة وتخمتها وملئها بالطعام.

إنما يكون الإنسان إنسانًا، حينما يقوم من الطعام قبل أن يمتلئ.

فالإنسان هو إنسان فقط، إذا استطاع أن يقاوم ما يحب ويتحمل ما يكره، وهو إنسان فقط إذا ساد عقله على بهيميته وإذا ساد رشده على حماقته، وتلك أول ملامح الإنسانية فى الإنسان.

ويجاوب السادة الصوفية على من يسألهم: كيف يقاوم الإنسان شهوته؟ فيقولون بتنظيمها فى إطار الزواج، فإذا لم يتيسر الزواج يستعين عليها بالترك.. فالشهوة كامنة فى الجسم كمون النار فى الحجر.. إذا داومت على ضرب الحجر بالحجر ظهرت النار وبان شرارها، ولم تستطع أن تحكمها، فعليك بالترك.. لا تضرب حجر الأنوثة بحجر الذكورة.. تجنب الخلوة بين الجنسين.. وتجنب الإثارة والاستثارة.. وتجنب المراودة.. ولا تحم حول الحمى، حتى لا تقع فيه.. واكبح شهواتك بالصوم والعمل.. واستنهض روحك وقوها بالعبادة، وسيساعدك هذا الترك على عودة الشهوة إلى الركود والكمون، كما تكمن النار فى الحجر إذا كففته عن الاحتكاك؛ فتهدأ النفس ويتطهر القلب، ويعود إلى البال صفوه.

ونحن نضيف إلى كلام السادة الصوفية وسائل جديدة

أتاحها لنا العصر هى: الرياضة البدنية بألوانها، والرحلات وممارسة الهوايات والقراءة.. وكلها مصارف يمكن أن تجرى فيها فائض الطاقة، فتصبح فائدة وبركة، بدلا من أن تتركز تلك الطاقة فى الأعضاء التناسلية، وتصبح شهوة مدمرة تمتص صاحبها حتى النخاع وتستهلكه، فيما لا يفيد.

ولن يغنى ذلك عن الصراع ولن يغنى عن المغالبة والمراهقة.

فلا بديل عن الكفاح، فذلك قدر الإنسان.. وذلك أيضًا شرفه وامتيازه على الملائكة.

ولم يخلق الإنسان ليرث الجنة بلا مجهود، وإنما خلق ليأخذ الجنة غلابًا، وبعد إثبات الاستحقاق.

فلابد من المكابدة والمعاناة.

﴿لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾. [٤ – البلد]

ولا يمكن أن يكابد واحد بدلا من آخر، ولا يستطيع أبوك ولا أخوك، ولا صديقك أن يحمل عنك تلك المكابدة فيعانيها بدلا منك.. وإنما يخلق الإنسان ليولد وحده، ويموت وحده ويشيخ وحده، ويمرض وحده ويتألم وحده، ويكابد وحده، ويلقى الله وحده.

ولا نملك أكثر من أن نهون على بعضنا الطريق.. ببذل الحكمة والخبرة والقول السديد. وفى كتاب الموتى يقول

الحكيم الفرعونى منذ ثلاثة آلاف سنة:

احذر الاقتراب من النساء فى أى مكان تدخله، فقد انحرف ألف رجل عن جادة الصواب بسبب ذلك.. إنها لحظة قصيرة كالحلم، والندم يتبعها.

وكل الكتب السماوية تقول فى وصاياها: لا تزن.

وقد جاء مثل هذا الكلام فى صحف إبراهيم أبى الأنبياء من قبل إنه كلام قديم.. قديم.. منذ آدم.. ومنذ قال الله لآدم: لا تأكل من هذه الشجرة.

ويعود الأمر مرة أخرى، فيتكرر فإذا بكل منا يقف موقف آدم.. أيأكل من الشجرة المحرمة أم لا يأكل؟ ويتكرر هذا الموقف أمام كل إغراء.. طوال حياته.. ولا تعفى الحياة أحدًا من الإغراء، ولا تعفى أحدًا من الامتحان، ولا تعفى أحدًا من ذلك الموقف القديم الذى وقفه آدم، لأنه فى مراد الله وفى خطته،أن يخرج المكتوم فى كل قلب، وأن تفتضح النوايا وتظهر الأعمال:

﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾. [٧٢-البقرة]

وفى مراد الله أن تتمايز المراتب، وتتفاضل الدرجات.

وفى سنة الله أن يميز الخبيث من الطيب.

ولأن الله لا يريد أن يأتى هذا الأمر تعسفًا منه،

ولا يريد أن يفضح أحدًا من عباده بلا بينة.. فإنه خلق الدنيا ليفضح كل واحد نفسه بنفسه وبعمله.

﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾. [٢ -الملك]

ليحاسب كل واحد بعد ذلك نفسه بنفسه يوم القيامة.

﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾. [١٤-الإسراء]

وليدخل كل واحد فى رتبته، ومنزلته فى إقرار واقتناع، دون أن يكون له على الله حجة.

﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾. [١٦٥ - النساء]

﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾. [٤٩-الكهف]

ذلك موقف الإنسان الأزلى أمام ضعفه وقوته. وتلك هى نافذة الشهوة التى تأتى منها الريح، فتكشف المخبوء وتفضح المكتوم، وتدل على ارتفاع المراتب أو انحطاط المنازل.

والإنسان الحكيم يذكر ذلك، كلما وقف ذلك الموقف الذى وقفه آدم، والذى يتكرر عليه بعدد ما فى الدنيا من مفاتن ومغريات، فيجاهد نفسه ليستنهض أشرف ما فيه.

وذلك هو الجهاد الأكبر.. جهاد النفس الذى تفتضح فيه مكانتها ومنزلتها، ومصيرها وتعرف درجاتها.

وليس أشرف ولا أنبل من ذلك الجهاد.

الحب والشهوة

عند بعض الناس الحب هو الشهوة عينها.. لأنهم يرون دائمًا أن حبهم للمرأة يتداعى إلى اشتهائها.. ولأنهم يرون الحب والشهوة يلتقيان فى لحظة الجنس، فيذوبان فى سبيكة واحدة، وكأنهما معدن واحد ذو وجهين.. كل وجه يقتضى الآخر بالضرورة.

وقد رأينا الكثير من المفكرين الماديين يقولون نفس الكلام.

ورأينا رجلا مثل فرويد يقول: بأن الحب يخرج من ينبوع الجنس، بل إنه عين ذلك الينبوع.

والفكرة خاطئة.. وهناك التباس.

وقد نشأ الالتباس من هذه اللحظة التى يتداعى فيها حب الرجل للمرأة إلى شهوة.. لحظة تذوب الحوافز وتتداخل الدوافع ويلتقى النزوع العاطفى بالنزوع الغريزى البهيمى، فى ذلك العناق الملتهب الذى يهدف إلى الإنجاب والتكاثر.

ونسوا أنها لحظة خاطفة، ماتلبث أن تنتهى بانتهاء غرضها، وتعود الحوافز فتفترق، ويمضى كل منها إلى طريق مضاد.. النزوع العاطفى الذى حركه الجمال نراه يجاوز نقطة الشهوة، ويتخطاها فى صعود إيجابى، وخطى خلاقة نحو المودة والرحمة، والتحرر النفسى والانعتاق من الظلمة البهيمية، ونحو الانطلاق من ربقة الغريزة، إلى أفق العقل والوجدان والصداقة العميقة.. فى حين نرى النزوع الشهوانى ينزل إلى طريق عكسى هابط، ماضيا إلى تجديد اللذة بالسعى إلى مثيرات شهوانية جديدة، وموضوعات جنسية جديدة، بعد أن استشعر الضجر من الموضوع الأول، وبعد أن أدركه الشبع، محاولا أن يجدد الطبق ويعدد المأكولات، ثم يعود فيشبع فيقلب المائدة، ويبحث عن غيرها. وقد يهبط إلى درك الشذوذ والانحراف سعيًا وراء مثيرات وهمية جديدة.. وهكذا يهبط من ظلام إلى ظلام أشد، فى نزوع شهوانى إلى محض الشهوة وبلا هدف وإنما لمجرد قصور ذاتى، وآلية مادية مودعة فى الحشوة الطينية.. فذلك

طريق هابط إلى الغلظة والآلية والعبودية والظلمة، فى حين أن طريق الحب طريق صاعد إلى التحرر والانعتاق والانطلاق والنورانية، والمودة والرحمة.. وإنما جاء الخلط بين الطريقين بسبب ذلك اللقاء بين النزعتين، عند هدف مشترك فى لحظة خاطفة، فخيل للناظر فى أعماق النفس أنه أمام نوعية واحدة من الشعور منبثقة من عين واحدة.. والحقيقة أننا أمام نوعيتين متناقضتين، تنبع كل منهما من عين مختلفة.. الشهوة تنبع من عين طينية مادية، والحب ينبع من عين نورانية صافية علوية.

ولهذا نرى الشهوة يمكن أن تشتعل بدون حب، بل أحياناً مع الكراهية، وأحياناً نرى الرجل يطلب إشباع شهوته بالثمن، ونرى المرأة تزاول شهوتها بالحرفة.. وكلها أمور مستحيلة فى حالة الحب.. فالحب لا يشترى، ولا يمكن أن يكون حرفة أو تجارة، ولا يصح فيها تمثيل أو ادعاء.. ثم إن لحظة الشهوة تنسى بعد دقائق، على حين نرى ذكريات الحب تلازم صاحبها سنوات عمره.

والرجل الشهوانى غير الرجل العاطفى، كل منهما مزاج وطبيعة وشخصية ونمط.

وإذا فهمنا هذا عرفنا لماذا يوجد الحب أحياناً بلا شهوة، ولماذا توجد الشهوة فى الكثير من الحالات

بلا حب.. ولماذايشعل الحب الشهوة فى مرحلة من العلاقة الزوجية، ثم يعود فيتخطاها إلى تعلق أكبر، وأكبر برغم فتور الشهوة وانطفائها.

والمرأة والرجل أمام موضوع الشهوة مختلفان.

فالمرأة بحكم كونها وعاء النسل، تقدر الشهوة وتحرص عليها، وتهتم بها أكثر من الرجل، ويحزنها كثيرًا بل يصدمها فتور الشهوة فى العلاقة الزوجية.. وهى دائمًا تفسر هذا الفتور تفسيرًا خاطئًا بأنه فتور للحب، وأنه انحراف وخيانة.. وتتهم نفسها وتتهم زوجها، وقد تهدم بيتها وحياتها بسبب هذه التصورات الخاطئة.

أما الرجل الناضج فهو أقل احتفالا بالشهوة من المرأة، وهو يستريح إلى فتور هذه الشهوة، ويرى أن هذا الفتور يحرر عقله وقلبه، ويساعده على تفريغ طاقاته لموضوعات أهم.

أما المراهقون من الرجال فحياتهم هى شهواتهم، وهم أشد تعلقًا بها من النساء.. بل يكادون يكونون أطفالا فى تعلقهم بهذه اللذة.

ولا يمكن التعميم فى هذه المسائل، فقد نجد المرأة الناضجة التى تخطت شهواتها، وتجاوزت ضعفها الغريزى بأكثر مما يتخطاه أى رجل.. وقد نجد الرجل الحيوان الذى

لا يرى أبعد من أعضائه التناسلية..

ولا توجد قاعدة فى الحكم على الناس..

وإنما كل رجل وكل امرأة قانون فى ذاته..

وقد أراد الله بالشهوة أن يمتحن إنسانية الإنسان.

والفرق بين الإنسان والحيوان هو موضوع الشهوة.. فالله أعطى الإنسان من العقل، والإرادة والهمة والبصيرة ما يستطيع بها أن يكون سيدًا على شهواته.

ولا تنكشف منازل الناس ومراتبهم إلا فى لحظة الإغراء حينما تدعوهم الشهوة فى موكبها وزينتها.. وهى كعادتها تدعو إلى الممنوع، ولا تدعو إلى المباح، وتزين الحرمات ولا تزين الطاعات.

ويتردد الإنسان لحظة بين حافز شهوته، وبين نور بصيرته..

يقول الله لقوم لوط:

﴿أتأتون الفاحشة وأنتم تبصـرون﴾.. أتختارون شهواتكم على بصائركم.

وكل إنسان يعمل على شاكلته، ويتصرف وفق مكانته.

وهذه هى الحكمة من خلق الدنيا.. تصنيف الناس وفق مراتبهم.

ولكن الحب له سكة أخرى.. فبرغم أنه يلتقى بالشهوة فى لحظة، فإنه ما يلبث أن يتخطاها، ويتجاوزها صاعدًا إلى المثال الأعلى وجامع الكمالات، معشوقه الحق.. الله سبحانه وتعالى.

ونحن إنما نحب فى المرأة الصفات الربانية التى أودعها الله فيها.. نحب فيها الجمال، والرحمة والحنان والمودة والرأفة.. وكلها تجليات الأسماء الإلهية (البديع والرحيم والودود والرءوف).

فنحن نحب الله فيها، سواء عرفنا أم جهلنا.

وكل الحب الحق هو حب لله وفى الله.

ولو كان جمال المرأة ملكها لبقى لها.. ولكنه من الله، ولهذا ما يلبث أن ينسحب عائدًا إلى موطنه، وعالمه ويخلف المرأة عجوزًا هالكة، لا شكل لها ولا صورة.

وأهل الله الذين عرفوا روح المسألة، قد أراحوا أنفسهم من شهواتهم واستراحوا، وعلقوا همتهم بالله.. يطلبونه فى كل شىء.

وذلك هو المرتقى الصعب.

وما أسهل وصفه بالكلام.

وما أصعب تحقيقه بالسلوك.. فذلك هو الطريق.. والصراط، والدين الخالص، وقليل من الناس هم الذين استطاعوا صعود هذا المرتقى الصعب.

الحب.. هل أصبح وثنية؟

استمعت فى التليفزيون إلى العالم يغنى.

معنى الكلمات فى اجمالها حمى وهذيان وهلاوس، والحركات هستيريا ولا شيء يبقى فى الذهن من هذا المهرجان وبهرج الألوان والأنوار سوى الإحساس بأنك أمام طقوس وثنية بدائية.. الأصنام المعبودة فيها هى.. جسم المرأة العارى ومفاتنها وأعضاؤها.. والرموز المهموسة هى الجنس والغريزة والعطش الحيوانى بصوره وأشكاله.. ولا يخفف من هذه المعانى أن الشعر والفن وفرشاة الرسام التشكيلى هى التى تعبر عنها بل العكس.. نراها تزيدها اشتعالا.

والعجيب أن هذه الموضة الجديدة زحفت على إعلانات التليفزيون فتحولت هى الأخرى إلى لوحات غواية تستعمل نفس الأساليب.. فتضع فى بؤرة أضوائها الكاشفة نفس الصنم المعبود.. جسم المرأة العارى.. تلعب به وتحركه لتصل إلى حواس المشاهد.. هذه المرة بهدف ترويج سلعة تجارية أو بضاعة.. لون غريب من التسول الجنسى الصريح.

وأغانينا ليست بعيدة عن هذه الموجة.. فنحن كالعادة نسير فى الزفة ونقلد الخواجات بلا تفكير.. كل الفارق بين الديسكو الشرقى والديسكو الغربى أن حركاته أكثر كسلا وتأوهاته أكثر بلادة والظاهر أن هذه الهستيريا قديمة جدا قدم التاريخ وربما نكون نحن الذين صدرناها فى البداية.. وربما تكون بضاعتنا ردت إلينا فمجنون.ليلى هو شاعرنا قيس بن الملوح وهلاوس الحب الجميلة أنشدها قيس الذى خولط فى عقله؛ فجعل من ليلاه وثنا معبودا يحرق له البخور ويقدم له حياته وعقله قربانا.

ومن بعد قيس جاء ركب الشعراء الرومانسيين واستمرت السلسلة حلقة بعد حلقة حتى آخر حلقاته جيل الشعراء المرتزقة الذى يكتب أغانى الإعلانات، ويتسول الزبون والمشترى بالكلمة العارية والصدر العارى.

فهى وثنية قديمة وطقوس قديمة.

وهى عبادة بدائية تجد لها أصنامًا قائمة فى أثينا، ومحاريب ومعابد وتماثيل للأعضاء التناسلية، وتجد منابعها فى الإيقاعات الزنجية الأفريقية بين عرايا الشيلوك والدنكا والإخراج التليفزيونى يبعث اليوم هذه العبادة البدائية حية من جديد ويسخر لها أخطر وسائل الصوتيات والمرئيات، ليحاصر بها حواس المشاهد ويصوغ وجدانه صياغة قهرية غاشمة لا حيلة له فيها.

المشاهد اليوم ضحية هذا الطوفان من المؤثرات الجهنمية ولا يملك إلا أن ينساق فى هذا الزار، وينزل ليتطوح فيه وجميع مراتب السن مستهدفة.. الطفل والصبى والشاب والكهل والعجوز لا أحد يملك العصمة من هذه المؤثرات، الكل ما يلبث أن ينزل الحلبة ويفقد وعيه ويفقد وقاره.

هذه الوثنية الجديدة التى تعبد اللذة، وتسترخى وتنام للدغدغة العاطفية تكتسح العصر كله..

ولا تملك موعظة شيخ أو محاضرة قسيس أن تقف أمام بهرج الألوان والأضواء والموسيقى الثعبانية الناعمة، وقرع الطبول الهمجية ورقص الصبايا أنصاف العاريات، وغناء داليدا المثير وفحيح الكلمات المكشوفة، والحركات الهستيرية لأنثى أفعوانية مثل كلوديا كاردنالى.

وأبلغ الأحاديث الدينية لا تصمد أمام هذا الهجوم الحاشد على الحواس من جميع المنافذ، والمشاهد معذور والذى يطالبه بالمقاومة يظلمه.

ومن يستطيع أن يقاوم متعة مجانية حاضرة على مرمى زرار.

ولو أنصف المشرفون على برامج التليفزيون لخففوا من هذه البرامج؛ فتأثيرها هدام على جميع المستويات وفى المدى القريب والبعيد.. وأخطر ما فيها أنها تخلق اقتناعا ومناخا وفلسفة حسية، وتصوغ الوجدان على قالب سهل لا يستهدف سوى اللذة السريعة والمكسب السهل، والربح الجاهز واللحظة الحاضرة.. ثم تتعود النفس بعد ذلك على اللهاث وراء اللذة وطلب المتعة من أى سبيل وبأى وسيلة.. ثم يصعب بعد ذلك فطامها عن هذه اللذات بأى وعظ أو إرشاد.. ثم ينعكس هذا الاقتناع على مفهوم الحب ذاته فيحوله إلى طقس وثنى لا يطلب إلا المتاع الحسى، وتفتقر العلاقات بين الجنسين إلى الإنسانية والقيم والمبادئ.

ولا مانع من الترفيه.. لكن بأسلوبنا وعلى طريقتنا، وفى حدود أعرافنا وعاداتنا.

وإذا كان لابد من الاستيراد فاستيراد العلوم

والتكنولوجيا والمخترعات المفيدة أولى من استيراد هذه المتع الخطيرة.

وكما قلت إن البلاء قديم ومبدأ اللذة موجود منذ آدم وهستيريا العواطف سارية المفعول فى كل العصور.. وقد عثرت وأنا أقلب فى أوراقى القديمة على هذه الأزجال التى كتبتها منذ ثلاثين عاما أشكو فيها من نفس الهستيريا.

أهل الهوى ياليل حواديت جرايد.
وكلام سكارى على الكاس ومفقود وفاقد
وكركرة دخان وشيشة ومخدور ومغمى عليه.
وحلم فوق السحاب
وحورية من ياقوت
وأمير على العرش قاعد
وسيرك أوهام وشعر ومواجد
وقيس بيبكى ويغنى على روحه ويهيأ لنفسه كلام.
ويصدق السرح والتهويم، ويتواجد
ولو كان اتخبط فى دماغه واتجوز لما خط بيت من الشعر من أصله ولا موال.

ولا كان كتب حاجة غير فاتورة البقال،
وما شكوت منه من ثلاثين عامًا ما زال قائمًا.
والقصة قديمة والهستيريا قديمة والغواية قديمة.. ولكن

الجديد أنها اليوم مفترسة «مسلحة» بالوسائل الالكترونية ومزودة بجميع حيل الصوت، والضوء سهلة ميسرة قريبة على مرمى زرار.. وهى قد احتشدت بخيلها ورجلها وهيلمانها وتجلت بكامل زينتها وبهائها لتخلب عقل العصر كله وتلفته إلى وثنيتها وماديتها.

وما كنا فى شبابنا معرضين لمثل تلك الفتن.. وما أحوج هذا الجيل إلى الحفظ والعصمة من أولى الأمر المهيمنين على أجهزة الإعلام.

لا أقول هذا الكلام لأنى ضد الحب ولكن لأنى ضد هذا التزييف الوثنى للحب.. فالحب كما أراده الله وكما وصفه فى قرآنه هو السكن، والمودة والرحمة وهو بهذا المعنى روح الكون وهو الذى يبنى المجتمعات ويضم شمل القلوب ويجمع أشتات البشر، ويداوى الجراحات ويمحو العداوات وهو شىء آخر غير هذه الشعوذات الفنية، وحلقات الزار ومواكب الصراخ، ومشاهد الرقص البدائى وذلك العواء الذى يشبه عواء القرود فى الغابة.

إنهم يزيفون أجمل ما فى الحياة.

قد يقول قائل: إنها نوع من تفريغ الطاقة المكبوتة عند الشباب، وأنها ما تبقى للشعوب من حرية الاحتجاج

يخرجونها صراخا ونباحا وضربا بالأرجل فأقول لهم وذلك عين التزييف للمشاعر.

وقد يقول آخر. سوف تهبط علينا هذه البرامج رغم أنوفنا من الأقمار الصناعية، فى أقل من خمس سنوات وسوف تقتحم علينا غرف نومنا بلا استئذان ولن تستطيع أن تحمينا منها رقابة.. فأقول هذا شىء آخر غير أن نقلدها ونتبناها، ونقتدى بها فى برامجنا وإعلاناتنا.. إن منطق الاقتحام بما يحمله من عدوان شىء مختلف.. له مذاق مختلف.. وهو بطبيعته سوف يثير فى النفس الحذر والتخوف مثله مثل أى غزو أجنبى.

ثم إنى لا أدعو إلى مجرد الرفض بل إلى دخول المنافسة بنماذج فنية أكثر جودة، وأصدق تعبيرا عن النفس والبيئة.

والمشكلة مستمرة..

هل نحن فى آخر الزمان؟

يبدو أننا نعيش الآن فى آخر الزمان.. فعجلة الحوادث فى التاريخ قد تسارعت، بدرجة لا تبشر بزمن طويل باق.

فى الماضى كان التاريخ يسير ببطء سلحفائى، وكانت عجلة الحوادث بطيئة متراخية.. بين العصر الحجرى وعصر اكتشاف المعادن، والتعدين عدة ألوف من السنين.. ثم أسرعت العجلة بعض الشيء، فرأينا بين عصر الحديد وعصر البخار حوالى ألف سنة.. ثم عادت العجلة فأسرعت فإذا بين عصر البخار، وعصر الكهرباء حوالى مائة سنة.. ثم عادت العجلة فأسرعت أكثر، فإذا بعصر الذرة ثم عصر الإلكترونيات، ثم عصر الفضاء تتلاحق فى بضع عشرة

سنة.. ثم انطلقت العجلة تجرى فى سرعة جنونية، فإذا بنا ننزل إلى القمر، ثم نطلق إنسانًا آليًا إلى المريخ، ثم نسقط سفننا على الزهرة.. ثم إذا باكتشاف جديد فى كل يوم وليلة وساعة.

وإذا تصورنا هذه السرعة تتضاعف، فإننا سوف ننفجر انفجارًا فى أقطار الكون الأربعة، فى خلال بضع عشرة سنة قادمة.

وسوف تضيق الأرض بسكانها، فعجله النسل والتكاثر هى الأخرى تتسارع بلا ضابط، وفى مائة سنة قادمة سوف يتضاعف عدد السكان عدة مرات.. ولا نرى حولنا كوكبًا قريبًا يصلح للاستعمار.. إنما كلها ينقصها الهواء، والماء والضغط الجوى المناسب، والطقس الملائم للسكنى.

ومعنى ذلك أننا سوف نعود لنتصارع على هذه الأرض التى سوف تضيق بنا، وسوف نتقاتل بأنياب ذرية ومخالب إلكترونية.

والغلاء الذى يتفاقم فى العالم كله، يشير إلى قلة الموارد المتاحة مع كثرة الطلب، وكمثال بسيط لننظر الآن ماذا تكلف شقة متواضعة، أو غرفة فى فندق بالنسبة لما كانت تكلف طالبها منذ عشر أو خمس سنوات فقط؟ فكيف يتزوج الشاب وكيف يسكن وكيف يأكل؟ ولن يكون هناك

شاب واحد وإنما ملايين وملايين يولدون ويشبون كل شهر.

وازدياد المقدرة العلمية على استنباط وسائل الفن والتدمير، مع تدهور الأخلاق ونقص الخير فى النفوس يشير إلى ختام سريع من نوع الحروب المهلكة، والصراعات المدمرة المفنية.

فإذا لم يكن هذا ولا ذاك، فهو حدث كونى من نوع ما وعد الله.

﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارًا فجعلناها حصيدًا كأن لم تغن بالأمس﴾. [٢٤ - يونس]

ولا شك أن الأرض سوف تأخذ زخرفها وسوف تتزين فى خلال عشرات السنين القليلة القادمة، كما لم تتزين فى أى زمان آخر مضى.. وسوف يظن أهلها أنهم قد تمكنوا من كل شيء، وقدروا على كل شيء، وقد بدءوا من الآن يظنون بأنفسهم ذلك، فقد أسقطوا الأمطار صناعيًّا، ونقلوا قلوب الموتى إلى الأحياء، وزرعوا الأجنة فى القوارير، ومشوا على القمر.. وقد تصور الإنسان نفسه إلهًا، فخرق الشرائع وانطلق يستمتع كما يريد.

إن زمان ذلك الأمر قد اقترب إذن.

ثم إن ما ورد فى الكتب المقدسة من أنه من علامات

ذلك الزمن الأخير أن يتجمع اليهود فى وطن.

يقول ربنا لبنى إسرائيل فى سورة الإسراء:

﴿وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾ [١٠٤-الإسراء]

أى اسكنوا الأرض شراذم ممزقين فى الأمم (كما أشارت إلى ذلك آيات كثيرة أخرى) حتى إذا جاء وعد الآخرة جمعناكم أخلاطاً، ومن جميع الأرض وجئنا بكم لفيفاً.

ويكون ذلك التجمع إيذاناً بالحرب الخاتمة، بين العرب وإسرائيل تلك الحرب التى سوف ينتصر فيها العرب ويدخلون القدس، ويدمرون ما أنشأ فيها اليهود وما عمروا:

﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا «أى يدمروا» ما علوا تتبيراً﴾. [٧-الإسراء]

وبشائر الإعداد الإلهى لذلك النصر واضحة.. فقد جمع الله فى يد الأمة العربية كنوز الطاقة، ووضع أكثر مفاتيح تلك الكنوز فى الجزيرة العربية، وهيأ السعودية العربية لتكون أغنى ممالك الأرض فى بضع عشرة سنة.

ولم يحدث ذلك بسبب عبقرية العرب ونشاطهم، وإنما حدث تسخيراً من الله الذى فجر ينابيع الطاقة فى أرضهم

وسخر كل أهل العلم من إنجليز وفرنسيين وأمريكان ليعطوا خبراتهم صاغرين، وساقهم زمرًا بما جبل فى نفوسهم من حرص، وطمع فى أسباب الدنيا ليكونوا رقيقًا خادمًا لاستخراج تلك الكنوز، وكانت تلك استجابة الله لدعوة أبى الانبياء إبراهيم، حينما دعا لسكان البيت:

﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾. [٣٧-إبراهيم]

وهاهى الأفئدة تهوى إلى البيت من كل مكان، والرزق يتفجر من فوق الأرض ومن تحت الأرض.

ذلك هو الجانب الغيبى من الموضوع.

أما الجانب الظاهر.. فهو ذلك الثراء الذى ساعد على نقلة حضارية هائلة، نقلت العرب إلى صف المدنية الغربية فى سنوات، ثم فتحت لهم ترسانات السلاح يأخذون منها ما يشاءون.

ثم شرح الله صدور الشباب إلى كلمة الدين، وساق إليهم طلائع الدعاة، فتحالفت أسماء مثل: أبو الأعلى المودودى، وأبو الحسن الندوى ومالك بن نبى، والمهدى بن عبود، ومتولى الشعراوى على إحياء دينى فى المنطقة رافق الإحياء المادى، وتلك كلها إرهاصات على أن هناك وثبة قادمة.

وبعد خذلان الفكر الشيوعى المادى، وانكسار رايته فى مصر بالهزيمة والخراب الاقتصادى، لم تعد هناك راية يجتمع حولها الشباب سوى راية الإسلام.. لدرجة حملت الشيوعيين أنفسهم على التنكر فى زى الحجاج والمشايخ.

وهكذا انجلت التيارات عن تيار واحد، سوف يكتسح المنطقة.. تيار مؤيد بالإمكانات المادية الهائلة والصحوة الروحية التامة.. هو التيار الدينى.

فالمعركة التى وعدت بها الكتب السماوية، والأحاديث النبوية المتواترة قد ظهرت مقدماتها.. وتلك المعركة من علامات آخر الزمان، واقتراب وعد الآخرة.

ومن العلامات الأخرى التى جاءت فى الكتب.. تعدد ظواهر الانحلال، والنساء الكاسيات العاريات.. والرجال بالبلوزات المشجرة، والسراويل المحزقة والوجوه المصبوغة المحففة كالنساء.. والنساء المتشبهات بالرجال فى أماكن العمل.. ثم ذلك الفجور الذى أشاعته فى العالم كله أجهزة السينما، والتلفزيون والإذاعة، وذلك العرى الفاحش فى الكلمة والفعل، ثم ما جاء على كثرة الزلازل واضطراب الطقس، وتداخل الفصول.

فإذا تركنا جانبًا نبوءات الدين والكتب القديمة، وأخذنا برأى العلم وحده.. فسوف نقرأ عن هذه الظاهرة الغريبة

التى اسمها «التلوث» التى أصبحت طابع البيئة الآن فى كل مكان من العالم..

لقد فسدت البيئة..

ولم يعد البيت صالحًا لسكانه.

والأمر يتفاقم والتلوث يزداد.

الهواء تلوث بثانى أكسيد الكربون، وعادم السيارات ومخلفات احتراق المصانع مثل ثانى أكسيد الكبريت وكبريتور الأيدروجين، وأكاسيد الأزوت الغازية السامة.

والماء تلوث بالكيماويات، كما تلوثت الأرض بالإشعاعات الذرية المدمرة، التى تخلفت عن تفجير القنابل الذرية فى الجو، وفى الماء وتحت الأرض..

كما تلوث الماء والزرع برش المبيدات الحشرية، وبإلقاء مخلفات المصانع فى مجارى الماء والأنهار.. فأصبحت الخضراوات والفواكه، وأسماك البحر والبهائم والدواب التى تأكل من هذه الخضراوات ملوثة هى الأخرى بهذه المبيدات القاتلة.. ونحن نذبحها الآن، ونأكل لحمها فنتلوث منها، ومن الخضراوات والفواكه وأسماك البحر التى نأكلها.

كما تلوث الفضاء بالأقمار الصناعية التى ألقيت فيه بالألوف، وبالسفن الفضائية والأجسام المدارية، بلا عدد التى تلقى كل يوم للرصد والتصوير والتجسس.

وتلك الأجسام الغريبة قد أخلت بالتوازن المحكم وبالعلاقات المنضبطة، بين الشمس والأرض وبأحزمة الجاذبية وبتوزع الإشعاع، والدقائق الذرية المقذوفة من الشمس.. مما أدى إلى اضطراب الطقس الملحوظ الآن فى زحف الشتاء على الصيف، وزحف الصيف على الشتاء، وانعكاس الفصول أحيانًا بطريقة غير مفهومة، والبعض يقول: إن هذا أيضًا كان سببًا من أسباب كثرة الزلازل.. ويزداد هذا التلوث بازدياد التعداد السكانى، ويتفاقم بالكثرة المتضاعفة والتكدس البشرى على الأرض.

كما تزداد خطورة الأسلحة العلمية بفساد العقول والضمائر التى تستخدمها، وذلك كله يشير إلى اقتراب الكارثة، خاصة إذا لاحظنا تسارع عجلة الحوادث، ومعنى ذلك أن الطريقة التى يسير بها التاريخ تؤكد أن نبوءة العلم ليست ببعيدة عن نبوءة الدين، وأن التحليل المحايد ليتفق مع توقعات قارئ القرآن الذى يقرأ المستقبل من كتابه.

﴿أزفت الآزفة، ليست لها من دون الله كاشفة﴾ [٥٧، ٥٨ - النجم]

﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾[١٧ - الشورى]

﴿اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون﴾ [١ - الأنبياء]

﴿إنا أنذرناكم عذابًا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابًا﴾ [٤٠-النبأ]

هل دخلنا فى آخر الزمان؟

وماذا بقى من عمر الدنيا..؟!

هل هى عشرات من السنين.. أم أكثر؟

الله أعلم .. ولكن النذر فى الأفق.

غرفة تغيير الملابس

٤٢ قتيلا فى لعبة كرة فى استاد بلجيكا.

قتل بدون قضية لمجرد خلاف حول من يشجع من.. ومن يجلس هنا ومن يجلس هناك.. ومن يصفق لفريق ليفربول ومن يصفق لفريق لوفنتوز..

وتخرج التعليقات من انجلترا تقول: إن مباريات الكرة أصبحت مجرد مناسبات للمعارك الجماعية وشرب الخمر، وأن لعبة الكرة لم تعد رياضة بل أصبحت مرضا.. وتقول مسز تاتشر: إن ما حدث يعتبر وصمة عار فى جبين انجلترا.

ولكن الحادث لا يمضى كحادث عادى.. بل هو مؤشر ذو دلالة على تغيير حدث فى نفوس الناس.. تصعيد غير

مفهوم لردود الفعل العادية لتصبح قتلا وذبحا بلا سبب وبلا مبرر حتى فى مناسبات الرياضة والترويح والترفيه.

لماذا نعجب إذن لما يجرى على ساحة العالم بين السيخ والهندوس فى الهند، وبين التاميل والأغلبية فى سيريلانكا وبين السود والبيض فى جنوب أفريقيا، وبين الفرقاء فى لبنان من أهل الدم الواحد والدين الواحد واللغة الواحدة.. ثم النار المستعرة فى قلب الخومينى وآيات الله فى إيران لا تقبل هدنة ولا مصالحة ولا ترضى بما دون القتل.

ثم موسيقى الوتريات الهادئة الجميلة أيام زمان التى تحولت إلى هستيريا الديسكو وضجيج النحاسيات الصاخب.. والشباب الذى يسير فى مظاهرات ليشعل الحرائق ويدمر ويخرب.

ثم جيوش السوفيت تسحق بالدبابات شعبا أعزل فى أفغانستان وتصب النابالم على قراه وتحرق زروعه ولايرتفع من الشاطئ الذى يسمى نفسه اليسار الإسلامى صوت.

ثم الألوف من الأقليات المسلمة فى بلغاريا يلقى بها فى السجون وتعذب وتقهر على تغيير أسمائها أو تموت.

ثم الابن يقتل أبويه والأم تقتل أولادها والشباب يدمن المخدرات والطائرات تخطف، والرهائن تعذب والعربات

الملغومة تفجر ومئات الأبرياء يقتلون تحت شعارات مزيفة ولافتات كاذبة.

ماذا حدث بطول العالم وعرضه؟ ما هذا الغل والضغن الذى تطفح به النفوس فى عصر الوفرة والألكترونيات والمشى على القمر، والميكنة الزراعية وارتفاع الدخول بين الزراع وأهل الحرف والأعمال اليدوية.

كيف انقلب يسر العيش عسرا، والوفرة كمدا وجريان المال نقمة، والعلم جاهلية والتقدم قساوة وكيف أصبح للفوضى مؤسسات وللقتل نقابات وللجريمة دول؟

أهو الإفراز الطبيعى لحضارة مادية لا تؤمن إلا باللحظة فيتقاتل الكل على الفوز بتلك اللحظة بالمخلب والناب ويتنافس الكل نهبا وسرقة وغشا.. فلا محاسبة ولا مراقبة ولا عقاب لمن يفلت، ولا بعث بعد موت والعالم كنوزه مستباحة، وخيراته لا حارس لها ولا صاحب.

فما بال آلاف المآذن وآلاف الكنائس وآلاف المحاريب.. وحلقات الذكر وأصوات التمتمة والحمحمة.

أهى كلمات لا تتجاوز اللسان ولا تتخطى الحناجر.

وكثرة تقول ما لا تفعل وتفعل ما لا تقول.. والقلوب خاوية على عروشها والنفوس خراب شغلها الشاغل المادى والمكسب والخسارة، وإن كان لسانها يقول شيئا آخر..

نعم..

الحضارة المادية غزت القلوب وغزت النفوس، وسكنت النيات وأتلفت أكثر أهل الدين. فما عادوا أهل دين بل أهل دنيا.

المادة وراء هذا اللهاث.

وجنون المكاسب وراء هذا الزحام والتدافع بالأكتاف والاستهانة بكل عرف وخُلق؛والتسابق إلى اللذات ونسيان كل شيء إلا حصاد اللحظة وراء هذا الفساد الذى يكاد يقتلع الإنسانية من جذورها.

ولحظة بلحظة يجرى الإيقاع المجنون، وتتابع مشاهد هذه المسلسلة الهابطة.. العالم ١٩٨٥.. كما نراها فى النشرات الأخبارية وكما نقرأها فى الصفحات الأولى من الجرائد وكما نشاهدها فى التليفزيون.. بل إن أجهزة الإعلام تسهم بأكبر نصيب فى خلق هذا الجوع المادى، وهذا الشبق الحسى عند الناس وتروج له بالروايات والمسلسلات والنشرات الإعلانية.. والفيديو يقود الموكب اللاهث والكل يجرى وراء لا شيء.

أحيانا أتمنى لو توقف هذا الطوفان من الهرج والمرج وأخذ الناس إجازة من هذا اللهاث، ولو إجازة مرضية يقضونها فى فراشهم يتأملون ويحاسبون نفوسهم وينظرون

من بعيد إلى شارع الحياة.

وقفة بأمر المخرج الكونى.. سكوت.. صمت..

كلاكيت.. انتهى التصوير.. يهدم الديكور.. ويعاد بناؤه للمشهد القادم.

الرؤساء والسلاطين والأباطرة يخلعون ملابسهم ويرتدون ملابس الخدم.. والخدم يلبسون طيالس الملوك..

الكهنة يخلعون تيجان الذهب ويضعون أقنعة الحمير والخنازير. الحكماء يرتدون ملابس السوقة، والسوقة يجلسون فى منصات القضاء.

وأسأل نفسى أحيانا..

ترى هل اقتربنا من تغيير المناظر بالفعل؟

وهل أشرف المشهد الدرامى على نهايته؟

وأتحسس ثيابى مرتاعا وأتساءل.

ترى من أكون فى المشهد القادم..؟!

أنشودة حب للذى خلق

سمعتهم يتحدثون عن الحب.

ويغنون للحب..

ويحلمون بالحب..

ويتكلمون عن الشفاه والخدود والنهود، ويرتلون التسابيح فى جمال لبنى، ويركعون على أعتاب لمياء، ويسجدون فى محراب ليلى.

فلما حدثتهم عنك يا إلهى أشاحوا بوجوههم عنى، وكأنى أزعجتهم من حلم.

وما دروا أنهم ما سجدوا إلا فى محرابك، وما سبحوا إلا لجمالك، وما ركعوا إلا لك، وإن جهلوك وأنكروك

وكفروا بك.. فما ظهرت المحاسن إلا عنك، ولا بدت الجميلات إلا بجمالك، وما سحرتهم ليلى إلا بمفاتنك، وما أسكرتهم العيون إلا بسرك، وما أذهلهم بالحق إلا وجهك.. فما ثم إلا وجهك.. تقدس وجهك عن الأسماء.

ومن هى ليلى، ولبنى، وسعدى، ولمياء؟؟!

إن هى إلا أسماء نقشتها رياحك على بحرك، وغدًا تنقش لنا أسماء أخرى وأخرى.. وكلها إلى زوال، وأنت أبدًا إلى بقاء يا بحر الجمال والمحبة.. والذين عرفوك وعبدوك وأحبوك، وغرقوا فيك وحدك قد أحبوا الحب الجميع المجتمع ورشفوا من البحر كله، وسبحوا فى الباقى، واعتصموا بالحى وسجدوا للحق، وركعوا للموجود أبدًا ودائمًا سبحانك يا من له الحب كله..

حدثتهم عنك يا إلهى وهم فيك ومنك وإليك، فما عقلوا عنى، وحجبتهم نفوسهم عن نفسك، وأعماهم ختم اللحظات التى ختمت بها على قلوبهم عن سر أبدك.. فعجلوا إلى نزوة اللحظة.. وما عجلوا إلا إلى العدم..

ولو كشفت لهم النقاب لوجدوا الأبد مطلا بعينيه من وراء اللحظات، ولرأوا جنتك تتألق من خلف السراب ولأنشدوا لوجهك مع العارفين المغرمين..

ولولا ليل شعرك ما ضللنا ولولا صبح ثغرك ما اهتدينا
وأثنينا على أوصاف لبنى ومعنى غير حسنك ما عنينا

فما ثم إلا معناك..

وما ثم إلا وجهك..

أنت سبحانك النور الذى تنورت به كل المظاهر، ولو اكتمل بصر الرائى ما رأى إلا نورك.. ولما زاغت منه العين فى الخصور، والصدور والنهود والقدود والخدود. ولما رأى فيها إلا نوافذ، ومشارف إقلاع يطير منها إليك.. ولما وقف عندها يلثمها، كما يلثم الوثنى نحاس الأضرحة، ويسكب دمع العدم ليشربه العدم..

صدق من قال بحبك..

وكذب من قال بحب سواك..

وكذبته روحه يوم القيامة..

وندمت يداه وقدماه فما زرع إلا الهواء.. وما حصد إلا الهواء.. وما تنور إلا بالظلمة.. وما تبرد إلا بالنار..

سيدى.. مولاى.. مليكى..

ما بيدى شىء..

ما بملكى شىء..

ما بوسعى شىء..

إلا ما أردت وأودعت واستودعت..

إليك أرد كل الودائع.. لأستثمرها عندك فى خزينة كرمك..

إليك أرد أبدع ما أبدع قلمى فهو جميلك. وإليك أرد علمى وعملى، واسمى ورسمى فهو عطاؤك، وإليك أسلم روحى وقلبى ونفسى، وجسدى فالكل من خلقك..

ثم أسلم لك اختيارى..

ثم أسلم لك سرى..

ثم أسلم لك حقيقتى.. وهى أنا..

وحسبى أنت..

زكنى يا رب، وطهرنى بإلهامك ورضاك لأكون يوم اللقاء من أهلك، وخاصتك وخلانك.. لأكون كاتبك فى الآخرة.. كما جعلتنى كاتبك فى الدنيا.. ولأكون خادمك، وكاتم سرك وحامل أختامك، وعبدك المقرب المتحبب إليك بتضحية نفسه.

هتك الستر

غاية ما يطمح إليه الحبيب أن يصل إلى المكاشفة التامة مع حبيبه، وأن تزول بينهما المسافة، وأن يصبح هو هى وهى هو، وأن ينتهى السر، ويهتك الحجاب.

وهو وهم شائع.

وخطأ بات من كثرة التداول حقيقة مسلمًا بها.

فلو انهتك الحجاب بين اثنين لانتهى الحب بينهما فورًا، فالحب قرب وليس فناء.. وهو تلامس أسرار، وليس تعرية وانكشافًا.

هل تحب أن يدخل عليك أحد «التواليت»؟!

وماذا يكون شعورك وأنت ترى أحدًا يطلع عليك وأنت

تباشر هذه الضرورة؟

ومع ذلك فهى حقيقة.. نحن نأكل.. ونحن نتبول.. ونحن نخرج فضلات.

ولنا لحظة شهوة نكون فيها أكثر عبودية؛ وبالتالى أكثر خجلا من أنفسنا.

ومن هنا جاءت كلمة العورة.. وكلمة الستر.. فذلك ضعف لا نحب أن نطلع أحدًا عليه.. برغم أنه أمر معروف ومشترك فينا جميعًا.

ثم إن الحب عاطفة تهفو، وتشب وتتطلع طالما كان هناك فضول.. وتشتعل طالما كان هناك سر.. فالسر يشعل الخيال.. والخيال مادة الحب وخامته.. وبدون خيال لا يبقى إلا تبادل المصالح وإشباع الغرائز.

الخيال هو الشعر والوهم والأحلام.

الخيال جناحان يطير بهما الحب ويعلو على الواقع، وبدون هذين الجناحين يقع الحب ويتحطم، ويجف ويذبل ويتكسر على أرض المصالح.

وإذا كنت تحرص على دوام حبك، فلا تحاول أن تقتحم هذه الأرض الحرام بينك وبين من تحب.. لا تحاول أن تهتك ستره.. لا تحاول أن تفتح دماغه أو تدخل قلبه.

ولهذا قال الله:

﴿ولا تجسسوا﴾.

لأن الله أراد لكل واحد منا أن تكون له خصوصية لا تنتهك. وسر بينه وبين ربه لا يطلع عليه إلا ربه.

ولكل منا وجه إلى الناس، ووجه إلى الله.. وذلك الوجه الثانى هو سره.

وانتهاك هذا الوجه عدوان، وطمع من الحبيب فيما ليس له.

ولهذا أشعر دائمًا بأن من يحاول أن يقتحم المسافة بينى وبينه باسم الحب.. إنما يفعل ذلك بحكم الكراهية وليس الحب.. فهو يريد أن يلتقط لى صورة فى التواليت، ويسجل على الوساوس التى لا تليق بى.. ويحاول أن يفضحنى.

وذلك هو الحب الأنانى الذى يريد فى واقع الأمر أن يتخلص منى، ويستهلكنى ويستنفدنى ويقضى على.

وتلك هى القسوة المقنعة التى نتبادلها باسم الحب.. والعدوان الذى نباشره باسم العشق.

ولهذا ضرب الله لنا مثلا على الكمال باسمه «العزيز».

فهو سبحانه العزيز الذى لا ينال.

وعلى من يريد أن يكون كاملا أن يكون هو الآخر عزيزًا لا ينال.

فالعزة والمنعة من صفات الكمال.

والشيوع والانكشاف من صفات الابتذال.

ومن هنا وجب أن تكون هناك مسافة بين الأحباء، وأن يكون الحب قربًا وليس اقتحامًا.

وتلك المسافة هى التى أسميها الاحترام.. حيث يحترم كل واحد سر الآخر، فلا يحاول أن يتجسس عليه.. ويحترم ماضيه ويحترم ما يخفيه فى جوانحه، ويحترم خصوصيته وخلوته وصمته، ويحاول أن يكون ستراً وغطاء، لا هتكًا وتدخلاً وتلصصًا ونشلاً.

فالحب عطاء اختيارى حر، وليس مصادرة قهرية وسلباً واغتصاباً.

وفى هذه الحرية جوهر الحب.

والله يقول عن عطاء الأسرار والعلم الذى يعطيه لعبيده:

﴿ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء﴾.

[٢٥٥-البقرة]

وتلك هى العزة فالله يعطى ما شاء من علمه لمن شاء..

لا يستطيع أحد أن يغتصب منه ما لا يريد.

وبالمثل الكاملون أهل الرحمة والمودة، وأصحاب الأخلاق الربانية لا يحبون أن يغتصبوا، ولا أن تنتهك أسرارهم.. وإنما يحبون أن تظل لهم الحرية يعطون من أسرارهم ما شاءوا لمن شاءوا، وهم بالمثل لا يفكرون فى انتهاك سر أحد أو اغتصابه.

وتلك هى المسافة المقدسة.

وذلك هو الحمى الخاص لنفوسنا، لا يصح أن يطمح أحد فى دخوله أو فضحه، ومن يفعل هذا يقتل الحب ولا يحييه.

وحول هذا الحمى يجب أن نقيم نطاقات عديدة من الأسلاك الشائكة، ونطلق العديد من كلاب الحراسة ونبنى نقاطًا للإنذار المبكر.

فذلك قدس أقداس الذات الذى لا يصح أن يطلع عليه أحد إلا رب الذات وخالقها، لأنه وحده الرحمن الرحيم الذى يرحم الضعيف، ولأنه وحده الغفور الكريم الذى قال لنا إنه يغفر الذنوب جميعًا.

﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم﴾. [٥٣-الزمر]

ولهذه الرحمة الشاملة، والمغفرة الكلية كشفت له الذات وجهها دون خوف، فى حين احتجبت عن العالمين.

ولهذا نقول: إن الله يحب عبده الصالح الراجع إليه، أكثر من حب الأم لابنها، وأكثر من حب الحبيب لحبيبته، وأكثر من حب الراعى لشاته الضالة حين يراها عائدة إليه.

وكيف لا يحبنا من نفخ فينا من روحه، وأسجد لنا ملائكته، وسخر لنا أكوانه وفتح للمذنبين منا كنوز مغفرته؛ بل نظلمه إذا ساوينا بين حبه وأى حب من هذه الهزليات التى نقرؤها عن روميو وجوليت وقيس وليلى.

بل لا يساوى حرماننا من حبه حرماننا من أى حب ولا حرماننا من أى غال.

ولا يساوى غضبه علينا أى غضب.

وعلى خطايانا يجب أن نبكى حقًّا، وليس على أى هجر أو أى فراق، أو أى مرض أو أى موت، وذلك حال الذين قدروا الله حق قدره.

وما يستطيعون.

﴿وما قدروا الله حق قدره﴾. [٦٧-الزمر]

لأنه لا أحد يستطيع أن يحيط بنعمه وعطاياه ومحامده.

ولهذا حمد نفسه بنفسه وقال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾.

لأنه لا يقدر على الحمد حقًّا إلا من أحاط بالأفعال الكريمة كلها، والمحامد كلها .. وذلك أمر لا يعرفه عن الله إلا الله ذاته.

ولهذا قال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾.

فهو الحامد المحمود.

وهو وحده المستحق للحب الكامل دون العالمين.

وحسبنا نحن أن نتبادل من الحب المودة والرحمة.

وحتى على هذا لا يقدر إلا القادرون.

فهرس

صدر للمؤلف

٤٥- لماذا رفضت الماركسية
٤٦- نقطة الثليان
٤٧- عصر القرود
٤٨- القرآن كائن حَىّ
٤٩- أكذوبة اليسار الإسلامى
٥٠- نار تحت الرماد
٥١- المسيخ الدجال
٥٢- أناشيد الإثم والبراءة
٥٣- جهنم الصغرى
٥٤- من أمريكا إلى الشاطئ الآخر
٥٥- أيها السادة اخلعوا الأقنعة
٥٦- الإسلام ... ما هو ؟
٥٧- هل هو عصر الجنون ؟
٥٨- وبدأ العد المتنازلى
٥٩ - حقيقة البهائية
٦٠- السؤال الحائر
٦١- سقوط اليسار

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

قصص مصطفى محمود — صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
روايات مصطفى محمود — صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
مسرحيات مصطفى محمود — صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
رحلات مصطفى محمود — صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢

حازت رواية « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٤٤٤٩
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 00 - 3373 - 1

١ / ٩٢ / ١٥٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائما على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبوابًا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.

٣٩٩١